كرستين قودسي*:

مـا الــذي نســيناه عــن الاشــتراكية؟ دروس من الريفييرا الحمراء

ترجمة: مصباح كمال**
نشر النص الإنجليزي كمقال ضيف في موقع دار نشر جامعة ديوك:
What We Forgot About Socialism: Lessons from The Red Riviera, A Guest Post by Kristen Ghodsee | Duke University Press News
تمت الترجمة بإذن من الكاتبة.

قبـل عشـرين عامًـا، فـي تشـرين الثـاني/نوفمبر 2005، أصـدرت دار نشـر جامعـة ديـوك كتـابي الأول بعنـوان **الريفييـرا الحمـراء: النـوع الاجتمـاعي، والسـياحة، ومـا بعـد الاشـتراكية فـي البحـر الأسـود**.[1] وقـد أُنجـز هـذا العمـل فـي أعقـاب الانهيـار العـالمي للاشـتراكية ومـا تـلاه مـن صـخب الانتصـار الغربـي، حيـث اسـتخدمتُ منـاهج نوعيـة وكمّيـة لأدفـع بحجّـة بسـيطة، وإن كانـت غيـر شـعبية: بالنسـبة لمعظـم النـاس فـي الكتلة السوفيتية السابقة، كانت الرأسمالية تجربة بائسة

مـن خـلال كتابـة "القصـص القصـيرة" لرجـال ونسـاء يعملـون فـي صـناعة السـياحة النابضـة بالحيـاة فـي بلغاريـا خـلال العقـد الـذي أعقـب انـدفاع بلادهـم المحمـوم نحـو احتضـان الديمقراطيـة واقتصـاد السـوق، حاولـت أن أستكشـف كيـف ولمـاذا تحوّلـت هـذه الدولـة الصـغيرة فـي جنـوب شـرق أوروبـا مـن مجتمـع متـوازن، منظم، قـائم علـى قـدر مـن المسـاواة، إلـى عـالم فوضـوي، بـلا قـانون، يزخـر بلامسـاواة مذهلـة وظلـم صـارخ. وقـد غلّفـتُ انتقـاداتي لليبراليـة الجديـدة المتفشـية فـي "الشـرق المتـوحش"

[1] *The Red Riviera: Gender, Tourism, and Postsocialism on the Black Sea*

بروايات وصفية مكثفة لحياة خادمات الغرف، وسقاة الحانات، والمرشدين السياحيين، والطهاة، والنادلات، وموظفات الاستقبال. لم أرد أن أشرح أو أقرر للقارئ بشكل مباشر، بل أن أجعل القارئ يرى ويشعر من خلال الوصف الحي والتجربة الملموسة show, not tell

من خلال تتبّع دقيق لمسارات مهنية محطّمة وأسرٍ مفككة لرجال ونساء عاديين اضطروا إلى عبور عقد التسعينيات الكارثي، سعيتُ إلى أن يلمس القارئ حجم الاضطرابات الهائلة التي اجتاحت المنطقة: انهيارات مصرفية، تضخّم مفرط، بطالة، عنف، انتحار، وهجرة جماعية للشباب. لقد وعدت الرأسمالية بالرخاء والحرية، لكنها لم تمنح الكثيرين سوى الفقر واليأس. وما تزال ارتدادات تلك المرحلة الانتقالية، كما وثّقتها في كتبي اللاحقة، تتردّد حتى يومنا هذا. ومن السهل أن يرى المرء الخيط الواصل بين صدمة التسعينيات وصعود الأحزاب اليمينية والزعماء الاستبداديين في المنطقة.

وربما كان أكثر ما أثار الجدل، خصوصًا في عام 2005، هو ادعائي بأن الاشتراكية، رغم ما شابها من نقائص جسيمة، لا تزال تحمل بعض الجوانب الإيجابية التي لا ينبغي أن تُطوى في النسيان. ففي تلك الأيام المفعمة بسردية فرانسيس فوكوياما[2] عن "نهاية التاريخ" وسيادة الديمقراطية الليبرالية واقتصاد السوق، كان مجرد الإيحاء بأن هناك ما يستحق الاحتفاظ به وسط كل ما وجب التخلص منه يُعد هرطقة سياسية. أما في لحظتنا الراهنة، حيث يُرجَّح أن يصبح اشتراكي ديمقراطي العمدة القادم لمدينة نيويورك، فقد يصعب علينا اليوم أن نستعيد كيف غدت الاشتراكية في مطلع القرن الحادي والعشرين فكرة بالية، كأنها من زمن مضى. فلم تكن مجلة[3] Jacobin قد وُجدت بعد؛ ولم يكن بيرني ساندرز Bernie Sanders قد خاض سباق الرئاسة؛ ولم تكن ألكساندريا أوكاسيو-كورتيز Alexandria Ocasio-Cortez قد دخلت الكونغرس. وفي مناخ أكاديمي تهيمن عليه انتقادات ما بعد البنيوية للسلطة، كان مجرد التعاطف الطفيف مع الاشتراكية كافيًا لاستجلاب سهام النقد من اليمين المعادي للشيوعية ومن اليسار ما بعد الحداثي على السواء.

[2] Francis Fukuyama's
[3] *Jacobin Magazine*

بوصفي أكاديمية شابة، ربما كنتُ ساذجة أكثر مما ينبغي لأتوقّع حجم النقد اللاذع الذي سأتلقّاه لمجرد أنني أصغيت بعناية إلى روايات كبار السن من مُخبريَّ، والبحث في القوانين من الحقبة الاشتراكية، وإجراء استبيانين كبيرين للرأي دون الكشف عن البيانات الشخصية anonymous surveys للعاملين في قطاع السياحة. على الرغم من أنني أكدتُ نتائجي المختلفة بأدلة متقاطعة، وكتبتُ وصفًا صادقًا لحياة الناس العاديين في بلغاريا الاشتراكية، إلا أن بعض المراجعين اتهموني بالوقوع ضحية للتضليل الشيوعي. على سبيل المثل، أشارت مراجعة للكتاب عام 2007 في مجلة أسباسيا[4] إلى أن: "تحليل قودسي إشكالي لأن بعض التفسيرات تقع أحيانًا في فخ الأساطير السوسيولوجية التي نسجتها الدعاية الشيوعية." وكدليل على هذه "الأساطير السوسيولوجية،" اقتبست المراجعة من كتابي الآتي: "كانت النساء البلغاريات يستفدن في الماضي من إجازات أمومة سخية، وتعليم مجاني، ورعاية صحية مجانية، ورعاية أطفال مجانية أو مدعومة، ومطابخ وكافتيريات مشتركة، ومغاسل ملابس مشتركة، وطعام ومواصلات مدعومة، وعطلات مدعومة على البحر الأسود، إلخ (ص 165)." كل هذا صحيح، ولم تقدم المراجعة أي دليل يناقضه.

أقرّت المراجِعة في مجلة *Aspasia* بأن "كثيرين، لا سيما من النساء الأقل تعليمًا والقريبات من سن التقاعد في بلغاريا،" كانوا يعتقدون أن قدوم الرأسمالية قد حرمهم من تلك الخدمات الأساسية الشاملة، لكن المراجعة أصرت على أن هذا الاعتقاد لم يكن إلا نتيجة "غسل أدمغة" مارسه النظام الاشتراكي. لقد بدا أن مُخبريَّ البلغار في أواخر التسعينيات عاجزون، في نظرها، عن إدراك أن الرأسمالية ستجلب رواتب أعلى، يستطيع المرء بفضلها شراء مساكن وتعليم ورعاية صحية ورعاية أطفال يُفترض أنها أفضل جودة، وأن هذا سيكون أفضل بكثير من تقاضي أجور منخفضة مقابل الحصول على تلك الخدمات مجانًا. ثم طرحت المراجِعة سؤالها الاستنكاري: "المسألة هي، لماذا يُصدِّقُ باحثٌ 'من الخارج' هذه الدعاية بالطريقة نفسها؟"

جزءٌ مما قيل إنني ابتلعته من "الدعاية" هو الاعتقاد بأن التفكيك الجذري لشبكات الأمان الاجتماعي عقب إدخال اقتصاد السوق الحر سيدفع بملايين البلغار إلى هاوية الفقر، وأن هذا المسار سيكون منحازًا ضد النساء على نحوٍ واضح. وقد

[4] *Aspasia*

تبيّن ببساطة أن هذا صحيح، كما وثّقتُ أنا وآخرون ذلك (انظر ميلانوفيتش 2014، قودسي 2018،[5] وقودسي وأورنستين 2021،[6] على سبيل المثل). ولم يكن المرء بحاجة إلى أن يكون ماركسيًا ليدرك السخرية السوداء الكامنة وراء النكات الشائعة في أواخر التسعينيات:

س: بماذا كان البلغار يضيئون بيوتهم قبل أن يستخدموا الشموع؟
ج: بالكهرباء.

س: ما أسوأ ما في الشيوعية؟
ج: ما جاء بعدها.

وهذا لا يعني إنكار أن الأنظمة الشيوعية ارتكبت أمورًا مروّعة، من بينها غياب حكومة تمثيلية حقيقية، وهجماتها على الخطاب السياسي الذي لم يَرُق لها، واستخدامها أجهزة شرطة قمعية وسرّية تعمل خارج إطار القانون. ينبغي إدانة مثل هذه الانتهاكات للحقوق الإنسانية الأساسية، سواء وقعت في ظل الشيوعية أو كما تحدث الآن في الولايات المتحدة.

ومع ذلك، فإنّ التبشير المستمر بالجوانب السلبية لاشتراكية الدولة في القرن العشرين قد يُصعّب علينا رؤية جوانب النجاح التي حققتها الاشتراكية. بل قد يكون ذلك استراتيجية مقصودة. فأولئك الذين يجنون أكبر المكاسب من الرأسمالية يريدوننا أن ننسى ما كان من إيجابيات في ظل الاشتراكية، خشية أن نحاول فعل أيّ شيء لتغيير نظامٍ تتدفق فيه الثروة إلى أيدي الأغنياء والأقوياء.

لقد أقنعتني الأبحاث التي أجريتها لكتابة **الريفييرا الحمراء** بأن هناك بالفعل الكثير مما يمكن أن نتعلمه من تجارب أولئك الذين عاشوا بديلًا حقيقيًا وطويل الأمد نسبيًا عن الرأسمالية. إن تجارب الدول الاشتراكية في أوروبا الشرقية تذكّرنا بأن المجتمعات تستطيع أن تحقق الكثير حين تُعامل الحاجات الأساسية للناس باعتبارها مسؤولية مشتركة. فالتعليم، والرعاية الصحية، ورعاية الأطفال، والسكن، ومستوى معيشي معقول لم يُنظر إليها كامتيازات، بل كحقوق ينبغي أن نكفلها جماعيًا للجميع.

[5] Milanovic 2014, Ghodsee 2018
[6] Ghodsee and Orenstein 2021

صحيح أن بعض مُخبريَّ كانوا يتذمّرون من اضطرارهم للاستيقاظ مبكرًا لأداء أعمال الحيّ في "سبت لينين"، لكنهم أشاروا أيضًا إلى أن الاشتراكية عزّزت الإيمان بقوة الجماعة وكرامة مساهمة كل فرد. وقد دخلت النساء المدارس وأماكن العمل بأعداد أكبر، فاكتسبن ثقة جديدة واستقلالية أوسع. أما الحياة الثقافية—من موسيقى ومسرح وأدب—فقد أُتيحت للجميع، مما ساعد الناس على الشعور بالانتماء إلى شيء يتجاوز ذواتهم. كما أن الأحياء المخططة (وهي النسخة المبكرة مما يُعرف اليوم بـ"مدن الخمس عشرة دقيقة")[7] وأماكن العمل الاشتراكية كثيرًا ما تحوّلت إلى مراكز للنشاط المشترك والدعم المتبادل.

وعلى الرغم من أن هذه المجتمعات واجهت تحديات سياسية واقتصادية جسيمة، فإن مثُلها الاجتماعية القائمة على المساواة والتضامن والرعاية الجماعية ما تزال ذات صلة بنا في عام 2025. فهي تذكّرنا بأن النجاح لا يُقاس بالثروة المادية أو بالتكنولوجيا وحدها، بل بكيفية اختيارنا أن نرعى بعضنا بعضًا. وحين يُوجَّه الاقتصاد نحو غاية اجتماعية بدلًا من أن يُساق بمنطق الربح، فإنه يستطيع أن يخدم الصالح العام ويضع أساسًا لتقدّم طويل الأمد، وهي دروس ينبغي لنا جميعًا أن نتذكّرها ونحن نواجه التهديد الوجودي الذي يمثّله أزمة المناخ.

لم أعد بالسذاجة التي كنتُ عليها في عام 2005. ففي أيامنا هذه، أتوقّع أن يرى منتقديَّ فيَّ ضحيةً بائسة لـ"الدعاية الحمراء"، وأن يتّهموني بالتقليل من شأن القمع الذي وقع في بلدان الكتلة السوفيتية.

ولكنني توصلت أيضًا إلى استنتاج أن للسذاجة مكانًا مشروعًا. فالإصغاء بسذاجة إلى الطريقة التي يتذكّر بها الناس العاديون حياتهم (حتى النساء الأقل تعليمًا والقريبات من سن التقاعد!) قد يكون أفضل بكثير من الدخول في مشروع محمّل بأفكار مسبقة عن أن هؤلاء قد غُسلت أدمغتهم بدعاية نظام شرير، ومن دون خوف من النقد الذي قد يوجَّه إليك لأنك أخذت رواياتهم على محمل الجد.

7 مصطلح "15-minute cities" أو مدن الخمس عشرة دقيقة يشير إلى مفهوم تخطيط حضري يهدف إلى جعل جميع الاحتياجات اليومية الأساسية — مثل السكن، العمل، التسوق، التعليم، الرعاية الصحية، والترفيه — متاحة في نطاق لا يتجاوز 15 دقيقة سيرًا على الأقدام أو باستخدام الدراجة. ابتكر المصطلح عام 2016 البروفيسور كارلوس مورينو من جامعة السوربون في باريس. (المترجم)

لقد تعلمتُ أن البحث الرصين، مثل السياسة الرشيدة، يعتمد على التعاطف بقدر ما يعتمد على الأدلة. فالإصغاء بعناية إلى الطريقة التي يتذكّر بها الناس العاديون حياتهم في ظل الاشتراكية ليس تبنّيًا لها، بل هو محاولة لفهم ما كانوا يقدّرونه ولماذا. تلك الذكريات، المعقّدة في كثير من الأحيان والمتناقضة أحيانًا، تكشف عن نسيج الحياة اليومية الذي تغفل عنه النظريات الكبرى. وهي تذكّرنا بأن الماضي ليس أبدًا بالبساطة التي تصوغه بها أيديولوجياتنا. وإذا استطعنا أن نأخذ تلك الدروس على محمل الجد، وأن نصغي بفضول لا بحكم مسبق، فقد نجد إلهامًا لأشكال جديدة من التضامن والرعاية في العالم المليء باللايقين الذي نعيش فيه اليوم.■

* كريستين ر. قودسي Kristen R. Ghodsee هي أستاذة الدراسات الروسية ودراسات أوروبا الشرقية في جامعة بنسلفانيا ومؤلفة حائزة على جوائز لاثني عشر كتابًا بما في ذلك:

Kristen R. Ghodsee is the Professor of Russian and East European Studies at the University of Pennsylvania and an award-winning author of twelve books including

Second World, Second Sex: Socialist Women's Activism and Global Solidarity during the Cold War (2019), *Red Hangover: Legacies of Twentieth-Century Communism* (2017), *The Left Side of History: World War II and the Unfulfilled Promise of Communism in Eastern Europe* (2015), *Lost in Transition: Ethnographies of Everyday Life after Communism* (2011), and *The Red Riviera: Gender, Tourism, and Postsocialism on the Black Sea* (2005). She is also the host of the podcast A.K. 47 – Forty-seven Selections from the Works of Alexandra Kollontai.

للمزيد من المعلومات راجع: https://en.wikipedia.org/wiki/Kristen_Ghodsee

** كاتب في قضايا التأمين

حقوق النشر محفوظة لشبكة الاقتصاديين العراقيين. يسمح بإعادة النشر بشرط الإشارة إلى المصدر.
http://iraqieconomists.net/ar/